مجلة جامعة تكريت للعلوم المجلد (١٨) العدد (٦) آب (٢٠١١)

يهود الدونمة وعلاقتهم بالطورانية التركية في الدولة العثمانية

م. م. خالد سلمان شدهان
جامعة تكريت / كلية الآداب
قسم التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسطت الدولة العثمانية سيطرتها على مساحات واسعة من العالم، غرباً وشرقاً، إذ امتدت غرباً في دول البلقان واليونان ووصلت الى مشارف فينا عاصمة النمسا، إذ توقفت عند أسوارها، بعد أن أخضعت جميع شعوب هذه المناطق لنفوذها، والحال نفسه ينطبق على الشرق، بدأت من السيطرة على العراق وبلاد الشام ومصر وسواحل البحر المتوسط وصولاً الى مراكش، وكان نفوذها على مناطق المشرق والجزيرة العربيةواليمن بشكل مباشر بينما حظيت دول المغرب بنوع من السيطرة غير المباشرة ونوع من الحكم الذاتي.

وعاشت جميع تلك البلدان، باختلاف أديانها وأعراقها وقوميّاتها في ظلّ الدولة العثمانية، بنوع من الحرية والتسامح وتكافؤ الفرص، بل إن كثيراً من المناصب العليا في الدولة، كانت تسند الى اشخاص من قوميات وأجناس من غير الجنس التركي، ويرجع ذلك الى ادراك سلاطين الدولة العثمانية مبادئ الاسلام في الحرية والمساواة والعدل، حتى أصبحت نظرة الدول الاوربية للعثمانيين بأنها فضلاً من انها دولة عسكرية بأنها دولة دينية، واصبحت تمثل الكيان الحي للدين الاسلامي، وكان إذا اعتنق أحدُ الأوربين الدين الاسلامي قالوا عنه انه غدا عثمانياً.

وكان تنوع الاديان في الدولة، من مسلمين ومسيحيين ويهود، ومن مختلف القوميات، كالأتراك والبلغار واليونانيين والشراكسة والصرب والألبان، ينظرون الى الدولة العثمانية أُنموذجاً

حضارياً في تعاملهم وسلوكهم، لا سيما مع الأقليات غير المسلمة، التي عانت ألكثير من تسلط الكنيسة الأوربية ورجال الدين المسيحيين ومن الملوك والأباطرة، أما في ظل الدولة العثمانية كان الأساس الذي يفصل بين الرعايا والدولة يقوم على مبدأ الحقوق والواجبات، وليس على أساس العرق أو القومية وهذا ما جعل الدولة العثمانية تتميز بنوع من التعامل الانساني مع الاقليات التي خضعت تحت سيطرتها ومنهم الجالية اليهودية.

كانت الجالية اليهودية شأنها كبقية رعايا الدولة العثمانية، مارسوا أعمالهم وحرية معتقدهم، وامتهنوا جميع أنواع الأعمال والحرف، بل أصبحوا القوة الاقتصادية الكبيرة، وسيطروا على تجارة الكثير من السلع والبضائع، وأخذوا يتحكمون بمقدرات المجتمع الذي كانوا يعيشون بين أوساطه، ولم يكن كل ذلك بعيداً عن أنظار الدولة ورجالاتها، ولكن التسامح والعدالة وحرية العمل التي كان يوفرها المجتمع الاسلامي للجميع في ممارسة أعمالهم، بدءاً من حرية المعتقد ونهاية بكل الأعمال التجارية.

وعلى الرغم من ذلك كان اليهود يمارسون عاداتهم البغيضة في التآمر وإثارة الفتن وزرع سموم الحقد الكراهية المتأصلة في جذورهم بين الشعوب، وشق وحدة المجتمع العثماني،الذي ظل حقبات طويلة متوحداً تحت راية الدين الاسلامي الحنيف.

وشكل يهود الدونمة أُنموذجٌ حيّ في ممارسة الضغط ومحاولة هدم كيان الدولة العثمانية من الداخل، وكذلك من خلال إثارة النعرات الهدامة وفي مقدمتها إشاعة روح العنصرية الطورانية بين أوساط المجتمع التركي، وجاءت هذه الدراسة للبحث في أصل ونشأة يهود الدونمة، وبروزها في مركز الدولة العثمانية والمناطق المحيطة بها، واستعراض مفهوم معنى الطورانية وتاريخ ظهورها بين أوساط المجتمع التركي، ومن ثم أبراز دور يهود الدونمة في زرع هذا المفهوم وتكريس روح العنصرية بين أبناء الدولة، وأشهر الشخصيات اليهودية التي اعتنقت وأججت هذه النزعة، وكذلك المؤلفات التي روجت للطورانية في سبيل النيل من الاسلام وروحه التي صبغت كيان الدولة سلطانا وحكومة وأدارة وتشريعا وتنظيما .

ومن الله التوفيق.

بدايات ظهور يهود الدونمة في الدولة العثمانية

عندما بدأ الاضطهاد الاوربي لليهود يتصاعد منذ النصف الثاني في القرن الثالث عشر وبالتحديد منذ عام ١٢٥٣م، إذ أقدمت الحكومة الفرنسية باتخاذ حلّ جذري لمشاكل اليهود بطردهم جميعاً، وكان هذا الاجراء لم يكن عفوياً، وانما جاء كرد فعل لأفعال اليهود بسبب مخالفتهم للقوانين الفرنسية، فلجأوا الى انكلترا واستطاعوا أن يتغلغلوا بين أوساط المجتمع الانكليزي، وأن يسيطروا على كبار رجال السلك الكنسي، وعلى الكثير من النبلاء والاقطاعيين، واخذ المرابون منهم يفشوا هذه الظاهرة، وبعد التحقيق الذي أجراه الملك هنري الثالث[١]، والذي أثبت تورط ثمانية عشر يهودياً كانوا ينظمون تلك العمليات فقدموا الى المحاكمة وحكم عليهم بالإعدام[٢].

وبعد أن توفي هنري الثالث عام ١٢٧٢م، وخلفه على العرش أدوارد الأول(١٢٧٢–١٣٠٧)[٣]، أصدر أمراً حرم بموجبه على اليهود ممارسة الربا، ثم استصدر من برلمان اكسفورد عام ١٢٧٥م قوانين خاصة سميت (الانظمة الخاصة باليهود)، وكان الهدف منها الحد من ظاهرة انتشار الربا، وقد ظن اليهود انهم في هذه المرة سيتمكنون من تحدي أوامر الملك، ولكن كانوا خاطئين في ذلك، إذ أن الملك أصدر قانوناً ينصُّ على طرد جميع اليهود من انكلترا وكان ذلك بدء المرحلة التي يطلق عليها المؤرخون الإجلاء الأكبر[٤].

توالت عملية طرد اليهود من باقي دول أوربا تباعاً، إذ طردوا من سكسونيا عام ١٣٤٨م، وهنغاريا عام ١٣٦٠م، وبلجيكا عام ١٣٧٠م، وسلوفاكيا عام ١٣٨٠م، والنمسا عام ١٤٣٠م، وهولندا عام ١٤٤٤م، وأخيراً من اسبانيا١٤٩٢م[٥].

إن عمليات التهجير والطرد التي أصابت اليهود من المجتمعات الاوربية لم تكن عمليات مخطط لها مسبقاً، وانما جاءت بعد أن مارست الاقليات اليهودية أبشع الاعمال كممارسة الربا وسلب أموال عامة الناس فضلاً عن التامر على سلطة الدولة ، واستمرارهم في اثارة الفتن والمشاكل بين أوساط المجتمعات الاوربية نتيجة الحقد والعدوان التي يتميز بها

اليهود، وكما وصفهم المؤرخ أرنولد توينبي ((بأن اليهود منذ فجر تاريخهم عدوانيين، واستمرت روحهم العدوانية ضد البشرية لامتلاء قلوبهم بالحقد والكراهية ضد بني البشر))[٦].

وشهد عام ١٤٩٢م أقوى وأشد عمليات التهجير التي طالت اليهود في أوربا، إذ تم طردهم من اسبانيا مركز ثقلهم الكبير، بعد أن استغلت الجماعات اليهودية الحق الذي منح لهم بجباية الظرائب من عامة الناس كضمان للقروض التي كانوا يقدمونها للحكومة الاسبانية فاستغل المرابون اليهود هذا الوضع أبشع استغلال وأظهروا من القسوة والبربرية في معاملة المجتمع الاسباني على اختلاف فئاته، مما زاد من نقمة الناس فأصدر فرديناند[٧]، الملك الاسباني قراراً بطرد اليهود من الأراضي الاسبانية[٨].

تحملت الدولة العثمانية جزءاً من هذه الهجرات للجماعات اليهودية، وسمحت لهم أن يتعايشوا مع المسلمين، ومنحتهم الدولة كامل الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية، وفرض سلاطين ال عثمان على جميع مؤسسات الدولة بوجوب توفير الحماية لأرواح اليهود وممتلكاتهم، وكان ذلك باعتراف اليهود أنفسهم بمقارنة حالهم في الدولة العثمانية بأوضاعهم التي كانوا يعيشونها بين المجتمعات الاوربية، ولم يعرفوا الامان والحرية الا بوجودهم تحت راية الاسلام التي حملها العثمانيون[٩].

هذه الهجرات أدت الى انقلاب في حجم الملة اليهودية في الدولة العثمانية، ففي جميع المراكز الحضرية التي تتميز بقدر من الشهرة وجدت جاليات يهودية، ففي سالونيك[١٠]، كان أكثر من ٦٠% من سكانها يهوداً، بل أصبحت العاصمة الأهم لليهود في الدولة العثمانية[١١].

إنّ روح التسامح والمساواة واحترام الآخرين التي تعامل بها العثمانيين مع رعاياهم ومن بينهم اليهود، قد فتحت آفاقاً واسعةً لهذه الفئات في الدولة العثمانية، وأطلقت أيديهم للعمل في الكثير من المجالات ولا سيما الاقتصادية منها، ولكن ظلت مكامن الحقد والكراهية التي هي من سمات المجتمع اليهودي تسيطر على عقولهم، ولا سيما المتطرفين منهم وأصبح وجودهم عامل أساسي من عوامل تدهور وانهيار الدولة العثمانية فيما بعد، إذ شهدت الاحداث أشتراكهم في الكثير من المؤامرات على الدولة في أوقات مختلفة.

يهود الدونمة

بعد أن هاجر اليهود من اسبانيا فراراً من بأس محاكم التفتيش عام ١٤٩٢م، إذ وصلوا الى شمال افريقيا (المغرب)، وهذا يعلل وجود جالية يهودية كبيرة في المغرب حتى الوقت الحاضر، وتوجه قسم آخر الى مركز الدولة العثمانية ويقدر عددهم بـ ٣٠٠ ألف شخص، وصلوا بحالة مزرية وبائسة، ومعدمين ولا يملكون أي شيء بعد أن فقدوا كلّ ما يملكونه في الطريق، ولكن كان معظمهم من أصحاب الحرف والمهن، فلم يمض وقت قصير حتى تعززت مكانتهم في ظل التسامح الاسلامي، مما أدى الى تحسين أحوالهم المعيشية وأخذوا يمارسون شعائرهم الدينية بدون أدنى رقيب، وأصبح لهم متحدث باسم الطائفة اليهودية في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠– ١٥٦٦م)[١٢].

وكلمة الدونمة تعني باللغة التركية (الردة)[١٣]، ورأي آخريؤكد بأنها تعني (كاذبا في ما يزعم أعتقاده)[١٤]، ترتبط هذه الطائفة بشكل مباشر الى من وضع الأساس الأول في انشائها وظهورها داخل المجتمع العثماني ويدعى (ساباتاي زيفي)[١٥]، الذي ظهر في وقت كانت الدولة العثمانية تعيش مرحلة من مراحل الضعف والتدهور، وكان للانكشارية دور في أضعاف الدولة وأشاعة روح التمرد والفساد، بل وصل الحال بهم الى قتل السلطان ابراهيم عام ١٦٤٨م، وسحقوا بشدة السخط الشعبي الذي ظهر نتيجة لمقتل السلطان، وكانت أساطيل البندقية تهدد سواحل الدولة، وعجز الدولة عن فتح قلعة فينا[١٦].

خلال محنة القرن الخامس عشر التي تعرض لها اليهود في كل أنحاء أوربا ولاسيما في اسبانيا، وأصبحوا في وضع سيء للغاية، تيقظت في أوساطهم دعوى (المسيح) المخلص لينقذهم مما هم فيه من العذاب والهوان والإبادة، وراجت في أذهان بعض الكهنة فكرة أن المسيح سيظهر عام ١٦٤٨م على وجه التحديد[١٧]، وفي سنة ١٦٤٨م أشاع (ساباتاي) بين أصحابه المقربين انه قد نُبيء، فصدقوه واتبعوه ، ولم يجد عسراً في ذلك إذ انه قد هيأهم وعبأهم نفسيا لذلك لما كان يتميز به من سرعة البديهة والمعرفة الشاملة لقواعد الدين اليهودي وأصوله واتقانه لعلوم كثيرة جعلته قادراً على شدّ واستحواذ عقول البسطاء والسذج من اليهود[١٨].

وزعم ساباتاي انه يريد أن يهدي قومه الى الاسلام وترك الديانة اليهودية ونال جراء ذلك قبولاً من لدن السلطان محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧) وعين له راتباً وسمح له بجولات في مختلف أنحاء الدولة، وفعلاً كان يدعوهم الى الدين الاسلامي في الظاهر، ولكن في السر يدعوهم الى التمسك والبقاء على دينهم وان يعملوا بكل قوة للسيطرة على اقتصاد الدولة بغية الامساك بمفاتيح الدولة لما يمثله الاقتصاد من أهمية كبيرة، وكونه عصب الدولة العثمانية، وقد ضبط من قبل رجال السلطان في مكان قريب من استانبول وهو يخاطب أتباعه ((أما الآن وقد أصبحتم مسلمين، اعملوا بكل حرية، عليكم أن تسيطروا على المصادر الدينية والطبيعية والمالية والتجارية والحيوية للأتراك، واستنفدوا في سبيل ذلك كل امكاناتكم، واستخدموا مختلف الوسائل حتى تتم لكم السيطرة الشاملة عليهم))[١٩].

وجيء بساباتاي الى السلطان محمد الرابع وقرر اعدامه، لكن اقترح عليه شيخ الاسلام عبد الرحيم أفندي بنفيه عن الدولة لأن قتله سيجعله شهيداً بين أتباعه ويضاعف من الاساطير التي تشاع حوله، وفعلاً نفي الى سالونيك، ولحق به الكثير من أتباعه، بحيث تحولت مدينة سالونيك الى مركز مهم لبث ونشر ما يدعو اليه[٢٠].

وذهب ساباتاي من سالونيك الى مصر واستضافه يهودي آخر يدعى رافائيل جوزيف، يعرفه المصريون باسم (يوسف جلبي)، وكان يعمل رئيساً للصيارفة في القاهرة، واستطاع ساباتاي من كسب جوزيف الى جانبه ومستفيداً من دعمه المالي لحركته، ثم زار فلسطين وتعرف على يهود القدس عن قرب، وبعد ذلك عاد الى آزمير عام ١٦٦٦م، وأصبحت شهرته كبيرة جداً بين الأوساط اليهودية، وفي آزمير انهالت عليه وفود اليهود من رودس وآدرنة وصوفيا واليونان والمانيا، إذ قلدته هذه الوفود (تاج ملك الملوك)، وبعد ذلك قسم ساباتاي العالم الى ٣٨ جزءاً، وعين لكل جزء منها ملك، لأنه كان يتصور انه سيحكم العالم من فلسطين، وكان كل ذلك يوقع بلقب (الابن الوحيد الاول ليهوه)[٢١].

لم تكن السلطة العثمانية في ذلك الحين تبدي اهتماماً كبيراً بنشاط ساباتاي وأتباعه لسببين الأول التسامح الديني وحرية الاعتقاد واستقلالية الطائفة اليهودية، والثاني هو انشغال الدولة بحرب جزيرة كريت(١٦٤٥-١٦٤٨)[٢٢]، غير أن بعض أركان الدولة استشعروا

خطرهم، وتهديدهم لكيان الدولة، فعرض قاضي آزمير على الصدر الأعظم فاضل أحمد باشا[٢٣]، بضرورة اعتقال ساباتاي للحد من نشاطه، فصدر امراً بإلقاء القبض عليه واقتيد الى العاصمة، وفي التحقيق أنكر ساباتاي كل ما وجه اليه من تهم ، ولكن الوقائع والأدلة كانت دامغة فحكم بالسجن، وتنقل بين عدة سجون بين آزمير و استانبول[٢٤].

أدرك ساباتاي أبعاد الموقف وخطورته، وان نهايته قد دنت إن هو استمر في اكذوبته فانكر كل شيء وادعى ان المتقولين عليه قد رسموا صورته وزيفوا أقواله، وأمر السلطان محمد الرابع بعرض الاسلام على ساباتاي كما تقضي قواعد الشرع الحنيف، فادرك ساباتاي بانه أصبح بين خطر الموت والاسلام فآثر بدهاء اليهودي وحرصه على الحياة أن يفتدي امبراطوريته الوهمية بدخوله في الاسلام ظاهراً ويسمى نفسه بأسم (محمد عزيز أفندي)، وبهذا كان أول شخص في تاريخ الدولة العثمانية وفي تاريخ العالم من ((الدونمة)) الذي يسمي نفسه بأسماء المسلمين مع احتفاضه سراً بأسمه اليهودي، ويعد مؤسس لهذه الطائفة[٢٥].

مارس ساباتاي باسمه الجديد عمله السابق وبحجة اقناع أتباعه باعتناق الدين الاسلامي، كان يحثهم على ممارسة معتقداتهم السابقة باطناً، فجاء الاتباع من كل مكان، ولبسوا الجبب والعمائم، فأطلق الاتراك عليهم اسم ((الدونمة))[٢٦]، ولما علم مسؤولي الدولة بهذا الامر، تم القاء القبض عليه ونفيه الى أيرات في البانيا مع بعض اتباعه وبقي هناك خمس سنوات، تزوج خلالها من امرأة يهودية من سلانيك، اسمها ((بوهيفيد)) فأسماها عائشة، ثم مات في الثلاثين من أيلول عام ١٦٧٥م، وقد ناهز التاسعة والأربعين ودفن هناك[٢٧].

ويقسم يهود الدونمة الى ثلاثة فرق، اليعاقبة والقراقاشية والقابانجية، وجميع هذه الفرق تظهر الاسلام ديناً وتمارس عقيدتها اليهودية في السر، أما الاختلاف بينها يكمن في فهمها للعقيدة الاسلامية التي تمارسها بين أوساط المجتمع العثماني، لاسيما ما يتعلق بالممارسات اليومية للفرد، ولهم لغتان تركية للتعامل مع الاتراك، واسبانية للتعامل فيما بينهم، ولكل منهم اسمان: اسم يهودي خاص واسم اسلامي رسمي عام، وكانت لهم مدارس خاصة بهم، كما لهم مقابرهم الخاصة[٢٨].

الطورانية

مصطلح الطورانية من أصل فارسي، وهو يشير بوجه عام الى المناطق الواقعة شرقي وشمال ايران، وهي المناطق التي كان يعتقد في القرن التاسع عشر انها الموطن الأصلي للجنس التركي، وتمتد هذه المناطق في مساحات واسعة من آسيا الوسطى والشمالية وكان من نتيجة النظريات الطورانية أو الطورو – آرية نمو شعور معين بوجود قرابة بين شعوب كانت تعد منتمية للجنس الطوراني ومنهم الاتراك(٢٩).

جاءت هذه النزعة كرد فعل لظهور الدعوة الى القومية العربية آنذاك في بلاد الشام، إذ ظهرت مؤلفات تدعوا الى القومية العربية، منها ما نشره نجيب عازوري(٣٠)، في كتاب بعنوان ((يقظة الامة)) وما نشره عبد الرحمن الكواكبي(٣١)، بعنوان((أُم القرى))(٣٢) .

أخذت الطورانية تسيطر على أفكار الكثير من ابناء الرأي العام التركي لاسيما بعد أن أصابها الضعف والانحلال مما أدى الى خسارتها الكثير من أراضيها في أوربا ، وانظم الكثير من الشباب التركي الى تبني الافكار التي تدعو الى الطورانية، والتخلي عن العثمنة واعتناق القومية التركية، وكان من أكثر الناس استجابة لهذه الدعوة واعتناقها والدعوة اليها هو ((ضيا كولب آلب))(٣٣) الذي دعا الى فرض سيادة الاتراك على غيرهم من رعايا الدولة، فأغلقت أعداد متزايدة من الصحف والنوادي اليونانية والأرمنية، وغيرها من الصحف والنوادي من الملل الأخرى، فأصبحت اللغة التركية اجبارية في مجال عقود الأعمال العامة حتى في الأماكن التي يغلب فيها أعداد الأقليات(٣٤)، بل دعا أنصار هذه السياسة في بداية القرن العشرين و بالتحديد من قبل حكومة الاتحاديين الى اضافة المكونات التاريخية والقومية لشعوب الدولة العثمانية بهدف جعلهم أتراكاً(٣٥)، وأخذ الاتجاه الطوراني يتسع في أرجاء الدولة العثمانية بعد أن غذته أحداث البلقان وتوافر أعداد كبيرة من المهاجرين الأتراك الذين كانوا يعيشون في البلقان، وأخذ تجمع العنصر التركي الآسيوي ينتشر ولاسيما في مناطق القوقاز الروسي وفي أواسط آسيا وفي قازان على نهر الفولجا وفي شبه جزيرة القرم(٣٦).

وعزم الطورانيون على جعل الأمة التركية امة مستقلة أتم الاستقلال في الحكم والتشريع و العقائد والآداب، غير مقيدة بأمم وشرائع أخرى، ولا سيما الشريعة الاسلامية التي حمل لوائها العرب، وقد مهدوا لهذا السبيل بما ألفوا له من الكتب والرسائل، ووضعوا الأناشيد والقصائد التي تتغنى بالعنصر التركي (الطوراني)، وان كانت أعمالهم هذه لاقت من الرفض من قبل عامة الناس ولاسيما المتدينيين منهم ، والذي لا يقبل بغير تطبيق الشريعة الاسلامية ومبادئ الدين الحنيف، ولكون السلطان يتمتع بنفوذ كبير بين أوساط المجتمع الاسلامي، فأراد هؤلاء ذوات النزعة القومية أن يضعفوا ويقللوا من هيبة السلطان بإقناع المجتمع بأن ضرر الخلافة عليهم أكبر من نفعها، فأخذوا يقنعون عامة الناس بأن القومية التركية أو الطورانية هي أعلى مرتبة من الدين [٣٧].

نالت هذه النزعة معارضة شديدة من قبل سلاطين الدولة العثمانية و أكدوا بأن الدولة العثمانية دولة احتوت عدداً كبيراً من الأمم والشعوب، وتشكلت من الأتراك والعرب والأكراد والارناؤوط والبلغار واليونانيين وغيرهم، إذ جمعتهم الرابطة الايمانية وجعلتهم أفراداً في عائلة واحدة، ولم يتم هذا الانصهار لولا سماحة الدين الاسلامي، وعليه يجب أن تكون صفة خليفة المسلمين فوق صفة سلطان الدولة العثمانية، فان الدين هو أساس البناء السياسي والاجتماعي للدولة، وما هؤلاء الطورانيين إلا أدوات تستغلهم القوى الاوربية في بث جذور القومية والعصبية في الدولة[٣٨].

وكان ليهود الدونمة الأثر الكبير في تنمية وتكريس هذا المفهوم العنصري، لا سيما اذا ما علمنا بان الدعوة الطورانية قد انبعثت من النظرية الصهيونية كأحد أقنعتها الأشد ابعاداً، كما انهم يرون ان حزب الاتحاد والترقي كان صنعة الصهيونية فقد فتح اليهود مؤسساتهم أمام الاتحاديين لعقد اجتماعاتهم بغية تقويض أركان الدولة العثمانية ومكافأة على خدماتهم أسند لهم الاتحاديون عام ١٩١٣ أربع حقائب وزارية من أصل ثلاثة عشر وزارة، وهي المالية ووزارة الاشغال العامة ووزارة التجارة والزراعة ووزارة البرق والبريد (البوستة والتلغراف)، وجميع هؤلاء الوزراء من يهود الدونمة[٣٩].

يهود الدونمة والطورانية التركية

بدأت الدول الاوربية تعمل على محاربة الفكرة الاسلامية التي تبناها السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦- ١٩٠٨م) في نهايات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لاسيما وان الدولة العثمانية كانت تمر بأضعف أدوارها ومراحلها، وكان المجتمع اليهودي في طليعة كل قوى العالم التي تبحث في قبور الوثنية الغابرة لتستخرج نزعة الطورانية التركية، والتي غدت نهجا لأدوات اليهود ومن ورائهم في ازالة الروح الاسلامية المتجذرة داخل المجتمع العثماني، وكان كتاب الحركة الطورانية الجديدة الذي أصبح أهم المراجع لمروجي هذه الحركة هو كتاب ((تاريخ الترك والمغول في آسيا من مبدأ نشأتهم الى سنة ١٨٠٥م)) للكاتب اليهودي ليو كاهون والذي صدر سنة ١٨٩٦م[٤٠].

كان دور يهود الدونمة في تبني فكرة الطورانية واضحاً لجميع المؤرخين لكثرة مؤلفاتهم التي تؤكد على اشاعة هذة النزعة العنصرية، إذ يذكر نيازي بركس الاستاذ في جامعة ماكجل بكندا في كتابه ((المعاصرة في تركيا)) إذ يقول: ((إنّ اليهود الاوربيين واليهود المحليين – في الدولة العثمانية في القرنين التاسع عشر والعشرين دوراً ضخماً في ارساء تيار القومية الطورانية – فالعلماء اليهود في الغرب لوملي دايفد وليون كاهون وارمينوس فامبري تصدروا الكتابة عن أصول الفكرة القومية الطورانية، كما ان اليهود المحليين في الدولة العثمانية مثل قراصو و موئبز كوهين وابراهيم غالانتي، كان لهم دور في جمعية الاتحاد والترقي))[٤١].

وكانت نظرية اليهودي المجري أرمينوس فامبري، من خلال الاتحاد الذي دعا الى اقامته والذي أطلق عليه اسم (بان توركيزم) وكان يشمل تركيا وجمهوريات آسيا الوسطى التي تتحدث بلهجات تركية متقاربة، وتقوم نظريته على فك الارتباط بين الدين الاسلامي والوطنية، فقال عن الاسلام (انه دين لا وطن له، ومن العسير ان تبنى الاوطان وفقاً للإسلام)، ودعا الاتراك الى فك ارتباطهم بالإسلام إذ كانوا حريصين على بناء دولة قومية[٤٢]، وخلص فامبري الى القول: ((إنه يجب على تركيا أن تَغْرب أي تصبح غربية وإما أن تهلك... ولما كانت لا تستطيع الأولى فلا مناص لها من الثانية))[٤٣].

وكانت أهداف زعماء الحركة الطورانية تتلخص بما يلي[٤٤].

١- جعل روح القومية التركية مستقلة عن الاسلام.
٢- جعل التركي العثماني تركياً أولاً ومسلماً ثانياً.
٣- تحرير اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسية.

في عام ١٨٨٩م أصدر اليهودي البولوني الأصل قسطنطين بورجتسكي كتاباً بعنوان ((الاتراك القدامى والاتراك الجدد)) تغنى فيه بفحولة الاتراك القدامى وتفوقهم العرقي، نادباً انحطاط الاتراك الجدد ومثيراً نزعة التمجيد العرقي، وفي عام ١٨٩٦م صدر في باريس كتاب بعنوان ((مدخل الى آسيا: الترك والمغوليون منذ نشأتهم وحتى عام ١٤٠٥م)) بقلم اليهودي الفرنسي الصل (ليون كاهون) وفيه يستعرض أمجاد جنكيزخان وتيمورلنك صناع الامبراطورية الطورانية القديمة واللذين انحطا واندحرا نتيجة اعتناقهما الاسلام كما يقول(٤٥)، وتناول كاهون خصائص القومية التركية مشدداً على فضائل الترك العسكرية، وأوضح طريقة العودة الى التركية مشيداً ببطولات الترك واصفاً اياها بالبطولات القومية(٤٦).

وساهم الكثير من يهود ((الونمة)) في تكريس الطورانية، ونكران فضل الدين الاسلامي وحضارته على جميع الشعوب، إذ يذكر أحد رجال هذه الحركة (الذين يبغون اللغة العربية فليذهبوا الى بلاد العرب والذين يبغون اللغة الفارسية فليرحلوا الى ايران... نحن أتراك ينبغي أن يكون لنا لغة تركية)، بل ذهب بعض الكتاب أبعد من ذلك عندما كتبوا (ان العرب يتكلمون بلغتهم ويجهلون التركية كل الجهل كأن بلادهم ليست تابعة لتركيا، فالواجب على الحكومة أن تجعلهم ينسون لسانهم، ويستبدلونه بلسان الأمة التي تحكمهم، واذا تناست الحكومة هذا الواجب كان مثلها مثل الذي يحفر قبره بيديه، لأنه لم ينس العرب لسانهم وتاريخهم وعاداتهم سعوا في إعادة مملكتهم القديمة)(٤٧).

ووزعت منشورات في أرجاء الدولة العثمانية، ولاسيما في القوقاز، تحط من الشأن العربي وتقول: (لقد كان العرب مصيبة علينا فإن ((جواد)) غازي تركي أفضل من أنبياء الامم الاخرى)(٤٨)، وهذا هو ديدن اليهود على مرّ التاريخ في الاساءة للأديان والنيل من الانبياء والرسل، وبالتحديد من نبينا المصطفى محمد (ﷺ).

وكان أخطر شخصية يهودية روجت للأفكار الطورانية وأظهرت تعصبها في سبيل افشاء ونشر هذه العنصرية بين الأوساط العثمانية هو موئيز كوهين[٤٩]، إذ كتب الكثير من المؤلفات التي ترسخ مفهوم القومية الطورانية وضرورة اعتماد العنصر التركي عليها في مقياس الولاء للدولة، ومن بين أهم مؤلفاته تلك التي ظهرت في فترة حرجة من فترات الدولة العثمانية، إذ كانت تعيش حالة من الانحسار والانكفاء والانهزام في حروبها مع الدول الاوربية وكذلك المشاكل والتمردات التي أزمت الوضع في مركز الدولة العثمانية.

تكمن خطورة أفكار موئيز كوهين من خلال مؤلفاته التي تميزت بالعنصرية وأصبح يعد من أكثر الدعاة للفكرة الطورانية في الدولة العثمانية، والخطر الاخر ان كتابه ((توران)) أخذ يشكل كتاباً مقدساً ومرجعاً أصيلاً لكل معتنقي السياسة الطورانية[٥٠].

ألف كوهين كتبه هذه في بدايات القرن العشرين، ولاسيما انه استغل حقبة الصراعات الأوربية وحالة الغليان التي كانت تنذر بنشوب حرب بين هذه الدول، وكانت اشهر كتبه ((ماذا يمكن أن يكتسب الاتراك من هذه الحرب)) وكتاب ((الطورانية)) وكتاب ((سياسة التتريك))، ولم يضع اسمه الصريح الا على الكتاب الأول، أما الطورانية وسياسة التتريك فكان يستخدم اسم مستعار ((تكين ألب))[٥١].

تطرق في كتبه تلك الى ضرورة قيام اتحاد للأتراك بدلاً من الانشغال في الدعوة الى الوحدة الاسلامية ، تعبيراً عن روح العداء للدين الاسلامي الحنيف، واستعرض حياة اشهر الكتاب القوميين الاتراك العنصريين[٥٢]، وكذلك أشار الى ضرورة تتريك غير العناصر التركية في الدولة العثمانية، وعبر عن مصطلح طوران بانه ليس تعبيراً تاريخياً حقيقة عرقية إذ ذكر في كتابه ((طوران)): (ان طوران أكبر من الأناضول بعشر مرات، إذ طوران تعيش لكنها تعيش تحت مخلب الصين وحذاء الروس، طوران أسيرة وحبيسة، طوران ذليلة، ان أكبر إذلال للقومية التركية يتمثل في ترك طوران هكذا، ان الواجب الأول والأقدس لكل تركي يدرك واجبه القومي ان يسرع لنجدتها، انقاذ طوران من التنين الصيني وأظافر النسر الروسي الدامية)[٥٣].

الخاتمة

لليهود تاريخ مليء بالدسائس والخبث واثارة الفتن، واشعال المجتمعات واغراقها بالمشاكل ويبررون ذلك تارة بانهم شعب الله المختار ولهم الأفضلية على جميع الشعوب وانهم سادة هذا العالم، وتارة اخرى يتهمون الآخرين باضطهادهم وقتلهم وتهجيرهم والاساءة اليهم، وكل هذا تزوير للحقائق واستغفال الآخرين، ولم يتعرض لهم أي مجتمع أو سلطة الا بعد تآمرهم وتعرضهم لجميع المجتمعات بإثارة الفتن وبث بذور الانشقاق والانقسام بينهم، وخير مثال على هذه الحالة هو ما مرت به الدولة العثمانية مع هؤلاء اليهود، إذ بعد ان استقبلتهم ومنحتهم كامل الحرية والعيش في ربوع أراضيها وكان لهم ما يحصل عليه بقية افراد المجتمع العثماني، ورغم كل ذلك مارس اليهود كلّ أنواع الالتفاف على الدولة العثمانية للعمل على الايقاع بها وفتح الطريق أمام الدول الاوربية في سبيل تحقيق غاياتهم وامانيهم الموهومة، وفرضوا على الدولة العثمانية شتى انواع الضغوطات لإجبارها على الركوع لمطالبهم، لاسيما وانهم قد استغلوا الظروف التي كانت تمرّ بها الدولة الداخلية منها والخارجية.

وبعد أن استنفد اليهود كل وسائلهم الخبيثة، اخذوا يثيرون قضية لم تكن في يوم من الأيام تشغل أي شخص عثماني خدم تحت راية الدين الإسلامي الحنيف، بدأوا بنشر أفكار العنصرية القومية أو ما تعرف بالطورانية التركية، بل ذهبوا الى أكثر من ذلك عندما دعوا الى حذف كلّ الألفاظ والمعاني غير التركية، سواء كانت عربية أو غيرها.

وتطورت دعوتهم الخبيثة هذه حتى وصلت الى مرحلة أخذوا بها يتطاولون على شخص الرسول الكريم محمد (ﷺ)، والنيل من القرآن كتاب جميع المسلمين، مما أدى الى ردة فعل كبيرة من قبل المجتمع الاسلامي، واعلنت تمسكها براية الاسلام، وانبثقت اتحادات وجمعيات اسلامية لمجابهة هذا الخطر المحدق بالأُمة، ورفض الجنود المخلصون لدينهم بالعمل تحت راية امرة الضباط العنصريين وعملائهم، ووصل الحال بإصدار بيانات تشجب هذه العصابات وتؤكد بانهم ليسوا اتراكاً مسلمون وكل ما يهدفون اليه هو القضاء على الدين الاسلامي، واعلنت فئات كبيرة من المجتمع العثماني ولائها للسلطان، وقاموا بطرد جميع المتأسلمين من اليهود واعضاء الاتحاد والترقي.

هوامش البحث:

(١) هنري الثالث: تولى عرش انكلترا للحقبة (١٢١٦– ١٢٧٢)، بعد حكم والده الملك جون الاول الذي في عهده وقعت وثيقة العهد الأعظم (الماكنا كارتا)، وتعد فترة حكم هنري الثالث هي فترة الوصاية من قبل النبلاء على العرش الانكليزي، وفي نهاية حكمه انتهت الحرب بين البابوات والأباطرة. ينظر: هـ . و. ديفز، أوربا في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الحميد حمدي محمود، دار المعارف، ط١ ، الاسكندرية، ١٩٥٨، ص ١٦٢.

(٢) محمد يونس هاشم، الدين والسياسة والنبوة بين الأساطير الصهيونية والشرائع السماوية، دار الكتاب العربي للنشر، ط١، دمشق، ٢٠١٠، ص ٢٣٠– ٢٣١.

(٣) أدورد الأول، ملك انكلترا للمدة (١٢٧٢– ١٣٠٧م)، أشتهر بأصلاحاته الكثيرة، ومنها التشريعات القانونية، وعقد في عهده البرلمان النموذجي الذي جميع فئات المجتمع الانكليزي، واخضعت في عهده وبالتحديد عام ١٢٨٢م ويلز لهيمنة انكلترا وينظر: هـ. و. ديفز، المصدر سابق، ص١٦٤.

(٤) كمال السعيد حبيب، الاقليات والسياسة في الخبرة الاسلامية من بداية الدولة النبوية حتى نهاية الدولة العثمانية (٦٢٢– ١٩٠٨)، مكتبة مدبولي للنشر، ط١، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٣٢٨.

(٥) يعقوب لاندروا، تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية (١٥١٧– ١٩١٤)، ترجمة: جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد، تقديم ومراجعة: محمد خليفة حسن، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٣٠.

(٦) رأفت غنيمي الشيخ، التاريخ المعاصر للامة العربية الإسلامية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ١٩٩٢، ص٢٦٨.

(٧) فرديناند: ملك قشتالة وليون (١٤٧٤– ١٥٠٤)، أصبح ملكاً على اراجون عندما منحه أبوه ملكها قبل موته، وتزوج من ايزبيلا ملكة قشتالة عام ١٤٦٩م وحكما قشتالة بالاشتراك وهكذا توحدت اسبانيا، واقاما محاكم التفتيش بطرد جميع الديانات غير المسيحية من الاراضي الاسبانية. ينظر:

Champ an. Charles E, A history of Spain, New york, 1958, P. 212.

(٨) محمد يونس هاشم، المصدر السابق، ص٢٣٢.

(٩) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الانجلو، القاهرة، ٢٠٠٤، ص٨٨.

(١٠) سالونيك: مدينة تقع على بحر ايجة شمالي شرق اليونان، فتحهما العثمانيون عام ١٣٨٦م. ينظر:

Runic man ,S, the fall of Constantinople 1453, Cambridge, 1965, P.122.

(11) **Bernard Lewis, Christians and Jews in the Ottoman Empire, meler puplishers, VaL-l,New york , 1982, P. 120- 123.**

(١٢) وليد رضوان، تركيا بين العلمانية والاسلام في القرن العشرين، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط١، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٢٦.

(١٣) محمد علي قطب، يهود الدونمة، سلسلة أعرف عدوك (١)، القاهرة، د. ت، ص ٥.

(١٤) وليد رضوان، المصدر السابق، ص ٢٨؛ علي محمد الصلابي، الدولة العثمانيةعوامل النهوض واسباب السقوط، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ط١، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٤١٢.

(١٥) ساباتاي زيفي: ولد ساباتاي زيفي في يوليو (تموز) عام (١٦٢٦م) بمدينة ((أزمير)) التركية من أبوين يهوديين مهاجرين من اسبانيا، والده يدعى ((موردخاي زيفي)) وكان يعمل في التجارة في آزمير، أنتقل اليها من جزر المورة في اليونان وعرف بين الاتراك

بلقب ((مفتش الاسود))، وساباتاي هو الابن الاصغر لموردخاي من بين ثلاثة أخوة ، ادعى ساباتاي بأنه المسيح المنتظر واسس فرقة الدونمة، ينظر: محمد علي قطب، المصدر السابق، ص ٩؛ علي محمد الصلابي، المصدر السابق، ص ١١٢– ١١٣.

(١٦) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع،ط١، دمشق، ١٩٨٩، ص ١٠٧.

(١٧) محمد علي قطب، المصدر السابق، ص ١٠.

(18) Runciman, op. cit , p.124.

(١٩) وليد رضوان، المصدر السابق، ص٢٧.

(٢٠) علي محمد الصلابي، المصدر السابق، ص ٤١٤.

(٢١) محمد حرب، المصدر السابق، ١٠٨–١٠٩.

(٢٢) محمد علي قطب، المصدر السابق، ص ١٥.

(٢٣) فاضل أحمد باشا: هو ابن الصدر الأعظم الشهير محمد كوبرلي باشا، وتولى منصب الصدارة العظمى بعد وفاة ابيه للفترة من سنة ١٦٦١ الى سنة ١٦٧٦م، ينظر: وليد خالد خضر البياتي، منصب الصدر الأعظم وأثره في نظام الحكم العثماني حتى عهد التنظيمات، رسالة ماجستير ((غير منشورة)) مقدمة الى مجلس كلية التربية، جامعة تكريت، ٢٠٠٩، ص ٣٤.

(24) Ed. Metin, R,phael Israeli Islam , potiticsin in the Modren East , London , 1989 , pp. 81- 82.

(٢٥) محمد على قطب ، المصدر السابق، ص ٢١–٢٢.

(٢٦) علي محمد الصلابي، المصدر السابق، ص ٤١٣.

(٢٧) محمد علي قطب، المصدر السابق، ص ٢٥.

(٢٨) محمد حرب، المصدر السابق، ص ١١١.

(٢٩) أحمد عبد الرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني، دار الشروق، ط٢، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٢٦١.

(٣٠) نجيب عازوري: عربي نصراني، اسس جمعية عرفت باسم ((جمعية الوطن العربي)) سنة ١٩٠٤م، في عهد السلطان عبد الحميد الثاني هدفها تحرير بلاد الشام والعراق من السلطة العثمانية، واصدر مجلة باللغة الفرنسية تدعى ((الاستقلال العربي))، ينظر: جورج انطونيوس، يقظة العرب، تقديم نبيه أميت فارس، ترجمة ناصر الدين أسد و احسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٧٢.

(٣١) عبد الرحمن الكواكبي: ولد في حلب عام ١٨٤٦ ،وتعلم اللغة التركية فيها، خدم في الادارة العثمانية وأمتهن الصحافة ، أضطر الى ترك حلب مسقط رأسه بسبب الارهاب الحميدي ، لجأ الى القاهرة عام ١٨٩٨ وأخذ يكتب في مجلة ((المنار)) لصاحبها محمد رشيد رضا، الف كتابين هما((طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)) وكتاب ((أم القرى))، هاجم فيهما الدولة العثمانية، وأكد على أحقية العرب بالخلافة، توفي عام ١٩٠٢ .ينظر: علي محافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٨٩٨-١٩١٤ ،الاهلية للنشر والتوزيع،ط٥ ،بيروت،١٩٨٧ ،ص١٠٦.

(٣٢) جورج انطونيوس، المصدر السابق، ص ١٧٣- ١٧٤.

(٣٣) ضيا كوك آلب: ولد ضيا كوك آلب في ولاية ديار بكر عام ١٨٧٦، ودرس في المدرسة الثانوية في الولاية المذكورة، وبعد أن أنهى الدراسة الثانوية العسكرية انتخب عضوا في جمعية الاتحاد والترقي. ينظر: أحمد نوري النعيمي، الحياة السياسية في الدولة العثمانية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٩٠، ص ٥٨.

(٣٤) احمد عبد الرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص ٢٨٢.

(٣٥) سيار الجميل، العرب والاتراك الانبعاث والتحديث من العثمنة الى العلمنة ،مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ،١٩٩٧، ص ١١٧.

(٣٦) احمد عبد الرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص ٢٨١.

(٣٧) رشيد رضا وآخرون، الدولة والخلافة في الخطاب العربي ابان الثورة الكمالية في تركيا، دراسة وتقديم: وجيه الكوثراني، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١، بيروت، ١٩٩٦، ص ١٤٧.

(٣٨) مؤسسة الرسالة، السلطان عبد الحميد الثاني مذكراتي السياسية١٨٩١– ١٩٠٨، ط٢، بيروت١٩٧٩، ص ١٧٦– ١٧٧.

(٣٩) وليد رضوان، المصدر السابق، ص ٢٤– ٢٥.

(٤٠) محمود ثابت الشاذلي، المصدر السابق، ص ١٦٦– ١٦٧.

(٤١) نقلاً عن:محمد حرب، المصدر السابق، ص ١١٩.

(٤٢)نقلاً عن:وليد رضوان، المصدر السابق، ص ٢٣.

(٤٣)نقلاً عن: محمود ثابت الشاذلي، المصدر السابق، ص ١٦٨.

(44) Ed. Metien ,OP.Cit , P .84.

(٤٥) وليد رضوان، المصدر السابق، ص ٢٤.

(٤٦) محمود ثابت الشاذلي، المصدر السابق، ص١٦٧.

(٤٧) ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، بيروت، ١٩٦٢، ص ١٣٢– ١٤٠.

(٤٨) نعيم اليافي وخليل الموسى، نضال العرب والأرمن ضد الاستعمار العثماني، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١، دمشق، ١٩٩٥، ص ١٨.

(٤٩) موئيز كوهين: ولد في سلانيك عام ١٨٨٣م، وتخرج من مدرسة الحقوق ثم انظم الى جمعية الاتحاد والترقي في عام ١٩٠٥م، واخذ يكتب في جريدة ((روم أيلي)) وكان رئيساً لجمعية تعميم اللغة التركية، وانتخب عضو شرف في ابرز جمعية تركية وهي ((تورك

وجـاغي)) وفـي الفتـرة مـن ١٩١٤– ١٩١٨عمـل اسـتاذا فـي كليـة الحقـوق بجامعـة استانبول، وفي عام ١٩٢٢ انتقل الى انقرة واخذ يكتب في جريدة ((الوطن)) وفي عام ١٩٤٦م أصـبح عضـواً فـي المجلـس الاقليمـي لحـزب الشـعب الجمهـوري لمدينـة استانبول، مـات كـوهين في عـام ١٩٦١م، ينظـر: محمـد حـرب، المصـدر السـابق، ص ١٢١– ١٢٢.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ١١٩.

(٥١) نعيم اليافي وخليل الموسى، المصدر السابق، ص ١١٤.

(٥٢) منهم (عبد الله جودت، محمد رضا كوك ألب، عمر سيف الدين) ينظر: المصدر السابق، ص ١١٨.

(٥٣) محمد حرب، المصدر السابق، ص١٢٤.